

مدارس تحليل الخطاب

يعرّف "جورج مونان" G.Mounin تحليل الخطاب بأنه: « كلّ تقنية تسعى إلى التأسيس العام والشكلي للروابط الموجودة بين الوحدات اللغوية للخطاب المنطوق أو المكتوب، في مستوى أعلى من مستوى الجملة »¹. هذا الإقرار بوجود مستوى - من الناحية الإجرائية - أعلى من مستوى الجملة، هو الذي فتح المجال لتعريفات أخرى أخذت بعين الاعتبار العناصر الخارجية غير اللغوية، وهو الأمر الذي أحدث تذبذبا في المفهوم، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، إلا أنه تمكن من أن يدرك الأبعاد الحقيقية للإنتاج الكلامي الذي لا يخضع في الكثير من الأحيان إلى عراقيل النظام اللغوي كما حدّده "ديسوسير".

انطلاقا من هذا التصور، اتسع مجال البحث اللساني ليشمل أبعدا عدة، لم تكن تؤخذ بعين الاعتبار في البحث اللساني البنيوي. فقد صارت شروط إنتاج الملفوظ عناصر جديدة بالدراسة. وصارت الأنماط التعبيرية المختلفة للغة، كونها حوارا أو محادثة أو نصا مبنينا على شكل فقرات ومقاطع، مواضيع جديدة بالدراسة. وصار ينظر إلى اللغة كونها أفعالا ذات أبعاد ووظائف اجتماعية ومؤسسية. وتمت معرفة القوانين الخطابية التي تتحكم في كلّ ما يتلفظ به الإنسان من ملفوظ. ولم يعد الحديث، بناء على ذلك، عن مستوى واحد للغة، وهو المستوى الشكلي والمصرح به، بل هناك المستوى الإضماري الذي تتم معرفته بتوسل بعض عناصر اللغة ممزوجة بعنصر من السياق المتعدد الأبعاد.

على العموم، تصنف مدارس تحليل الخطاب حسب العديد من الدارسين إلى 3 اتجاهات أو تيارات كبرى وهي الاتجاه الفرنسي، الاتجاه الانجلوسكسوني والاتجاه الألماني².

¹) G. Mounin (1974) : Dictionnaire de la linguistique, Quadrige/PUF.

² - Simone Bonnafous et Malika Temmar, Analyse de discours et sciences humaines et sociales, ed Ophrys, Paris, 2007, pp 10

1-الاتجاه الفرنسي¹ La tendance française:

استلهم هذا الاتجاه من النقاش الذي أثير حول البنيوية في سنوات الستينيات، وهو يجمع ما بين المنظور السوسيري (نسبة إلى "فردناند دي سوسير" F.De Saussure) والتحليل النفسي النقدي للشخص المتحدث لـ"لاكان" Lacan والتحليل الماركسي للإيديولوجيا لـ"التوسير" Althusser الذي بقي بصمة ميزت هذا التيار.

تأسست المدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب إثر ظهور مجموعة من الأبحاث منذ منتصف الستينيات من القرن العشرين كرسها صدور العدد 13 من مجلة Langages الفرنسية الصادر عام 1969 الخاص بتحليل الخطاب وصدور كتاب "ميشال بيشو" M.Pêcheux « التحليل الآلي للخطاب » عام 1983.

أما نواة هذه الأبحاث فقد تمثلت في دراسة الخطاب السياسي، وهي دراسات قام بها لسانيون ومؤرخون باعتماد منهجية جمعت بين اللسانيات البنيوية ونظرية للإيديولوجيا مستوحاة في الوقت نفسه من إعادة قراءة الفيلسوف الفرنسي "التوسير" Althusser لكارل ماركس، ومن أعمال الناقد النفسي لاكان. حيث تمحورت هذه المنهجية في التفكير في العلاقة حول ما هو إيديولوجي وما هو لساني مع تجنب حصر الخطاب في التحليل اللغوي البحت، أو ذوبان الخطاب في الإيديولوجيا².

من بين ما يميز تحليل الخطاب على الطريقة الفرنسية هو الوصف الدقيق والشامل لحياة العلامات (اللغوية) ضمن المجتمع، وعليه يؤثر هذا التيار المكتوب والمجموعات الكبرى للنصوص من أجل اكتشاف قواعد البناء الكامنة في النصوص والحصول على نماذج تحليلية.

¹ - Ibid, p 11.

² P. Charaudeau, D. Maingueneau: Dictionnaire d'analyse du discours

منذ نهاية السبعينيات، عرفت فرنسا تغييرا في الاتجاه بتراجع البنيوية وبروز تيار ما بعد البنيوية والمنعطف التداولي، ومنذ ذلك الحين، أصبحت إشكالية التلغظ – أي القواعد التي تجعل من الأفعال الكلامية أحداثا خطابية- في مركز التفكير.

ينظر للخطاب في التوجه ما بعد البنيوي باعتباره لم يعد مجرد انعكاس للعالم بل إنه يبني العالم الاجتماعي في المعنى، هذا المعنى الذي وتبعاً لعدم الاستقرار الأصلي للغة لا يمكن أن يكون ثابتاً على نحو دائم أبداً. وعليه فالخطاب ليس كينونة مغلقة كما كان ينظر إليه في الخمسينيات في ظل البنيوية، إنه في حالة تحول دائم عبر التماس مع خطابات متعددة¹.

تميز تحليل الخطاب منذ بدايته في فرنسا بتقليد التحليل الآلي lexico-métrique باستخدام برمجيات خاصة (lexico-3 Andre Salem // Alcest-e Max Reinert) لتحليل الخطابات المتعددة لاسيما منها السياسية.

من أهم الطرق التحليلية المستعملة في تحليل الخطاب حسب المدرسة الفرنسية²:

- تركز المدرسة الفرنسية في تحليل الخطاب على الجوانب اللغوية/اللسانية بشكل كبير، إذ يفترض في الباحث الذي يمارس هذا النوع من الدراسات حدّ أدنى من التحكم في اللسانيات، أو على الأقل، أن يُبديَ الباحث اهتماماً بالأفعال الكلامية والخطاب،
- الاعتماد الكبير على التحليل النحوي-المعجمي l'analyse lexicale، سواء تم هذا التحليل عن طريق تحليلات نوعية تقوم على مقارنة سياقات استعمال الكلمات أو عن طريق تحليلات كمية، وغالبا ما يتكامل هذان المقتربان إذ غالبا ما تسمح الطرق الإحصائية الكمية (lexicométrie) باكتشاف ظواهر كيفية لم يكن بالإمكان كشفها عبر القراءة البسيطة،

¹ ماريان يورجنسن ولويس فليبس، حقل تحليل الخطاب، ترجمة السيد إمام، مجلة فصول، مصر، المجلد (1/25)، العدد 97، خريف 2016، ص 215.

² - Stéphane Olivesi et al, Sciences de l'information et de la communication : objets, savoirs, discipline, édition PUG, Grenoble ; 2006, pp 222-224

- من جهة أخرى، تعتمد تحليلات الخطاب على العبارة كوحدة للتحليل وليس الكلمة.

ويتعدد أهداف الدراسة، تعددت توجهات تحليل الخطاب وتفرّعت المدرسة الفرنسية في مسارات عدة.

أ- **المقاربة المعجمية في تحليل الخطاب Une approche lexicale**: بما ان الخطاب

يتشكل من مجموعة من الكلمات يتبنى المحلل مقارنة معجمية، وينطلق من افتراض العلاقة بين الانتماء السياسي والمفردات اللغوي *vocabulaire*. ويتم الاستعانة في هذه الدراسة للمفردات اللغوية في الخطاب السياسي بالاحصائية المعجمية *statistique lexicale* أو القياس المعجمي *lexicométrie* بالاستعانة بالإعلام الآلي (التحليل الآلي) ومفاهيم علم الدلالة (التضمنين، العلاقة الدلالية ...). ويعتبر د. منغونو Dominique Maingueneau من رواد هذه المقاربة، وهو متأثر بالتيار النّفساني، حيث يفكك مكونات اللّغة للوصول إلى المعنى، إذ يولي الأهمية للمدونة التي تتم على قيمة تاريخية، ثمّ الحرص على أن لا ينصب الاهتمام فقط على الوظيفة الخطابية للوحدات اللّغوية، بل ينظر إليها كذلك باعتبارها وحدات لغوية بحتة. ثمّ إقامة علاقات هامة مع نظريات التّفظ اللّسانية، والاهتمام بما هو خطابي متعدّد، ثمّ التّفكير في الأنماط التي يثبت فيها المتكلم في الخطاب.

ب- **مقاربة نحوية تركيبية Approche syntaxique**: يتم التركيز في هذا الاتجاه على

التركيب النحوية التي تترتب من خلالها الوحدات باعتبارها محددًا أساسيًا للمعاني التي تتخذها الكلمات، ومن هنا تطور ما يسمى بالتوزيعية *distributionnalisme* المنبثق عن "هاريس".

ت- **التحليل الآلي للخطاب l'analyse automatique du discours**، وهو توجه تزعمه

"ميشال بيشو" Michel Pêcheux الذي اقترح نَسَبَ الخطابات لأيدولوجيا المرحلة التي أنتجت فيها. وبفضل تخزين المعطيات في جهاز الحاسوب تتم مباشرة التحليل الآلي للثوابت الدلالية *constantes sémantiques* والتشكيلات التخيلية *formations*

imaginaires. وقد عرف هذا التوجه ازدهارا معتبرا مع تطور الاعلام الآلي والبرمجيات المختلفة وأصبح هدف الدراسة الإحصائية يتعدى الإطار الضيق المتعلق بتكرار أحداث المكونات الأساسية بالاهتمام بالشبكات التشاركية réseaux associatifs التي تتسج بين الكلمات داخل النصوص.

المعروف أنّ ما ميّز مدرسة تحليل الخطاب الفرنسية باختلاف نظرياتها وتوجهاتها، هو عكوفها على دراسة الخطابات الاجتماعية، خاصة الخطاب السياسي. فقد شكل خطاب رجل السياسة محور الدّراسة السوسولوجية لقنواته وشفراته، أو لسانية للخطاب السياسي نفسه. فممنغونو مثلا، اختص بدراسة الجانب اللفظي لهذا الخطاب لاعتقاده بوجود علاقة وطيدة بين اللفظ والأيدولوجيا. تكفل ميشال بيشو بتحليل هذا الخطاب تحليلا آليا، مستخدما في ذلك الحاسوب لمعرفة العلاقة بين درجة اطراد الكلمات وورودها وعلاقة ذلك بالأيدولوجيا. هناك من حلله تحليلا نفسيا، مستمدا أسسه من نظرية هاريس بهدف معرفة إلى أي مدى يمكن للكلمات أن تثري مخزونات الدلالية بثراء في تركيب العبارات.

2-الاتجاه الأنجلوسكسوني La tendance anglo-saxone :

استلهم هذا الاتجاه من البراغماتية الأمريكية والتحليل النفسي الإنجليزي وكذا نظرية أفعال الكلام، وعلى خلاف المقاربة التفظية الفرنسية، وحسب "لفنستن" Levinston يُردُّ الخطاب حسب هذا الاتجاه إلى مستوى الفعل اللغوي في وضعية اتصال محددة. بعبارة أخرى، يبحث تحليل الخطاب الأمريكي في القواعد التي تنظم التفاعلات والمحادثات بين الفاعلين، فنجد محللو المحادثة يصفون الطريقة التي يصل بها المشاركون إلى إطار مشترك للوضع من خلال التفاعل الخطابي، ومن جهتهم يركز مختصو الإثنوميثودولوجيا على المعرفة الضمنية التي تتحكم في التفاعلات اليومية.

وانطلاقا من الاهتمام بالتنظيم الإشاري (أدوات الإشارة) والمتعدد الأصوات للخطاب polyphonique، ساهم كل من تحليل المحادثات والإثنوميثودولوجيا الأمريكيين في تطوير

التداولية اللسانية Pragmatique linguistique التي تتخذ من اللقاءات بين فاعلين في وضعية مواجهة وتفاوض كمواضيع للبحث.

أما في بريطانيا، فقد سمحت اللسانيات الوظيفية لـ "هاليداي" Halliday لعدد كبير من علماء اللغة بتحليل استخدامات النصوص في المجتمع، وباعتمادها المتميز على أدوات إمبيريقية، نشأت في أحضان التيار الأنجلوسكسوني العديد من الدراسات التطبيقية لمشكلات الاتصال التي تظهر في سياقات مؤسسية مختلفة: مهنية، سجون، مستشفيات...

من جهته يرى "منغنو" Maingueneau أن الخطاب في التصور الأنجلوسكسوني قد ارتبط ارتباطا وثيقا بالتفاعل الكلامي everyday spoken discourse، الملفوظات كتفاعل اجتماعي = لسانيات الخطاب + البعد التفاعلي

وبالتالي جاءت "د.شفرن" Deborah schiffrin¹ بالتصنيف التالي لمقاربات الخطاب ضمن المدرسة الأنجلوسكسونية:

- مقارنة فعل الكلام (الحديث) speech act approach
- اللسانيات الاجتماعية التفاعلية interactional sociolinguistics مع كل من "قوفمان" و"قومباز" Goffman et Gumpez
- اثنوغرافيا التواصل/الاتصال ethnography of communication مع "هايمز" (Hymes)
- المقاربة التداولية Pragmatic approach
- تحليل المحادثة conversation analysis (ethnomethodology)
- المقاربة التحويلية variationist approach مع "لابوف" (Labov) والتي تعنى بدراسة الاختلافات في الاستخدام بين مختلف المتحدثين من نفس اللغة.

¹ - Schiffrin.D, Approaches to discourse, Blackwell, Oxford Uk and Cambridge, USA, 1994

3- الاتجاه الألماني: La tendance allemande:

تم التركيز في بريطانيا على نظرية الخطاب أكثر من منهجية الخطاب. وقد سعت نظرية الفعل الاتصالي لـ "يورغن هابرماس" Jurgen Habermas -متأثرة بالتيار التداولي الأنجلوسكسوني- إلى إجلاء نموذج لشروط نقد السلطة واللامساواة. فعندما نتصل حسب "هابرماس"، لا يمكن إنكار بعض قواعد الخطاب التي تقوم على إجماع المشاركين في العملية، كمساواة المشارك في الحديث وقابلية الحجج للنقد. وقد تنوعت المحاولات التي سعت إلى تطبيق الأخلاقية الخطابية الهبرماسية في البحث الاجتماعي الامبريقي في العلوم الاجتماعية كتحليل الخطابات السياسية في إطار المتطلبات الديمقراطية للمجتمعات المعاصرة¹.

ومنذ التسعينيات، عرف نموذج "هابرماس" تراجعاً ملحوظاً وأصبح الخطاب موضوع علم الاجتماع الشامل وعلم اجتماع الفهم وتحديداً علم اجتماع المعرفة في انتسابه للظاهراتية والتأويلية. وفي إطار المشروع التأويلي الذي يهدف إلى إعادة بناء المعنى المشترك لجماعة ما، يُقصدُ بالخطاب المعنى، المعرفة، التأويلات التي تدعم وحدة نظام اجتماعي وثقافي، وعليه يدل الخطاب على معرفة وخبرة ثقافية ضمنية مخزنة في وثائق ونصوص المجتمع.

وفي هذا الاتجاه، قام عالم الاجتماع الألماني "كيلر" Reiner Keller ومساعدوه من جامعة Augsburg بمزاوجة مقارنة "ميثيل فوكو" M.Foucault بعلم اجتماع المعرفة في مسعى لإعادة بناء المعنى المشترك للنص².

تندرج ضمن المدرسة الألمانية المقاربة التداولية L'approche pragmatique، وهي تيار نشأ بامتزاج وتقاطع مجموعة كبيرة من الأفكار والنظريات تتفق في الطابع الاستعمالي للغة. وأقدم تعريف لها يعود إلى السيميائي شارل موريس C.Morris الذي حصرها في جزء من السيميائية الذي يدرس العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات. ثم بدأت تنحصر شيئاً فشيئاً فأصبحت تطلق على النظرية التي تدرس اللغة باعتبارها مجموعة من الأفعال، يسمح السياق

(1)

(2)

بتحقيقها. أما فرنسيس جاك Francis Jacques فهو يرى بأن التداولية تتعرض للغة كظاهرة خطابية واجتماعية في ذات الوقت. وتتمحور التداولية حول مفاهيم أساسية تتمثل في¹:

- **الفعل الكلامي:** أصبح مفهوم الفعل الكلامي (speech act) نواة مركزية في الكثير من الأعمال التداولية، وفحواه أنه كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثري، وفضلا عن ذلك يعد نشاطا ماديا يتوسل أفعالا (Actes Locutoires) تخص ردود فعل المتلقي كالرفض والقبول، ومن ثم فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلا تأثريا، أي يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطب، اجتماعيا أو مؤسساتيا، ومن ثم إنجاز شيء ما. وقد لاحظ أوستين أن للفعل الكلامي الكامل ثلاث خصائص هي:

- أنه فعل دال

- فعل إنجازي (أي ينجز الأشياء والأفعال الاجتماعية بالكلمات)

- أنه فعل تأثري (أي يترك آثارا معينة في الواقع، خصوصا إذا كان فعلا ناجحا)

- **القصدية Intentionnalité:** يعد مفهوم القصدية من الآراء السائدة الآن في النظرية التأويلية المعاصرة، والتيار التداولية في مجال اللسانيات، إذ أصبح النص عبارة عن أفعال كلامية منجزة من المؤلف، يقصد بها أنماطا من التأثير المتلقي. ولهذا أصبحت مقاصد المتكلم مؤشرات حاسمة في عملية التأويل، فلن يكون هناك "نص" ولا "خطاب" دون "قصد".

- **السياق:** يمثل السياق الوضعية المجسدة التي يصدر الخطاب فيها وهو يشتمل المكان، الزمان، هوية وطبيعة العلاقات التي تجمع المشاركين. بعبارة أدق السياق هو كل الأشياء التي نحتاجها لفهم وتقييم الخطاب.

وعلى العموم، تتلخص مهام التداولية في:

- دراسة "استعمال اللغة" فلا تدرس البنية اللغوية في ذاتها، بل تدرس اللغة عند

استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة، أي بالنظر إليها بأنها:

- كلام محدّد صادر من متكلم محدّد.

¹ محمد شومان، مرجع سابق، ص

- موجه إلى مخاطب محدد

- وفق لفظ محدد

- في مقام تواصلية محدد

من هنا، يمكن تحديد المجموعات الكبرى لتحليل الخطاب في أوروبا والتمثلة في:

➤ المجموعة أو المدرسة الفرنسية

➤ مجموعة ما بعد البنيوية لتحليل الخطاب متمثلة أساسا في رواد الدراسات الثقافية لمعهد

برمنجهام الإنجليزي وهم يقصدون بالخطاب الإيديولوجيا والثقافة بكل ما يميزهما من

لا تجانس وتنوع. وقد اهتم les poststructuralistes بدراسة تمثل أو تجسيد

Représentation مجتمعات ما بعد الحداثة في الإنتاج الخطابي.

➤ التحليل النقدي للخطاب.

في هذا الإطار، يؤكد يرى "د.مانغونو" أن الخطاب يقع ما بين الطريقة التحليلية والطريقة

التكاملية. أما الطريقة الأولى فهي متأثرة بالمدرسة الفرنسية وتهدف بتحليل الخطاب إلى تفكيك

المتتاليات من أجل إظهار شبكات العلاقات غير المرئية بين الملفوظات في النصوص. من

جتها، تهدف الطريقة التكاملية integrative إلى الربط بين مكونات النشاط الخطابي في

بعدها الاجتماعي والنصي المزدوج.

تحليل الخطاب بين النظرية والمنهج

وقبل تحديد معالم المدارس التحليلية المختلفة، نؤكد مرة أخرى على إمكانية استخدام تحليل

الخطاب في مجالات بحثية عدة مع ضرورة ربطه بالأسس النظرية والمنهجية، بمعنى أن كل